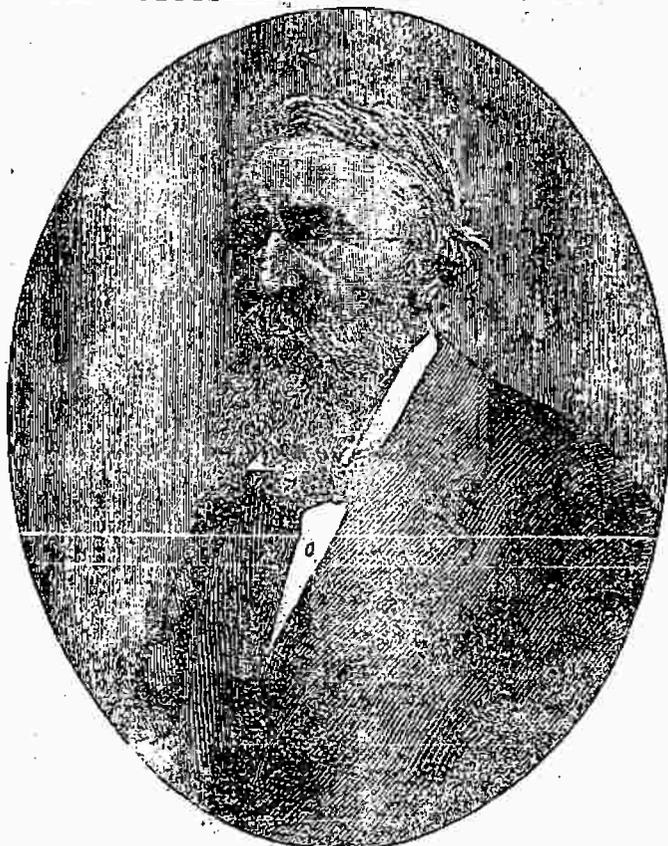


# المقطف

الجزء الثاني عشر من السنة التاسعة عشرة

دسمبر (كانون الاول) سنة ١٨٩٥ الموافق ١٤ جمادى الثاني سنة ١٣٣١



الدكتور كرنيليوس فان دايك

فيما نحن نبيت في حال ونصح في حال لما اصاب المشرق من الدواهي السود . ونتوقع  
انقراج الاوزم وعود الصفاء لتسرد ما فات ونجارية مما كادت تنازعنا الوجود . وفيما

القلوب واجبه . والالسن واجبه . والكوارث ثوالى . والوائب ثالى . ونحن بين يأس ونجوه  
وأمل نرجوه

إذا بالشام يرجفُ جانيه<sup>١</sup> لكن العلم حين هوى وما لا  
نقد اصيحا في الثالث عشر من هذا الشهر ( نوفمبر ) والبرق يعي الينا استاذنا الاكبر . الدكتور  
كرنيليوس فان ديك غارس رياض المعارف . وناشر لواء الفضائل . من لوعه المتفضلون على  
بلاد الشام لكان اعلام مقامه . ولوحسب الساعون في نهضتها العلمية والادبية لكان بينهم اماما  
وليس المقام مقام رثاء وتأبين والا لكتبنا رثاءه بدماء القلوب قضاء لحق واجب .  
واستنزنا خزائن اللغة في وصف مناقبه واذعناها في المشارق والمغرب . وانما سيرته غرضنا  
لما فيها من المواعظ والحكم والارشاد الى سبل الرشاد . ومحاسن الاخلاق والشيم وخلائق  
المعروف وعواطف الوداد . وقد كنا جعنا طرفا منها ونشرنا بعضه في المجلد الثامن من  
المتنطف وبعضه في «سر النجاح»<sup>(٢)</sup> . فرأينا ان نعيد ما ذكرناه هناك وتوسع فيه بما يحمله  
المقام ولحقه ببعض ما قالته الصحف في تأيينه . ويقينا ان القراء الكرام يعززون عن نقد  
فيلسوف الشرق بما ابقى من الفضائل والواضل . وبأن غرس المعارف الذي غرسه بينه  
يبقى بانعاضير ما دامت سيرته تظلي في المدارس والنازل

وولد الدكتور كرنيليوس فان ديك في ١٣ اغسطس ( آب ) سنة ١٨١٨ في قرية  
كندر هوك من اعمال ولاية زيوربك بأميركا . ووالده هولانديان هاجرا إلى الولايات المتحدة  
بأميركا وولدا غيره سبعة هو اصغرهم . وكان في صغره يتعلم في مدرسة في قريته فامتاز  
بالاجتهاد والتميز وبرع في اليونانية واللاتينية حتى حاز قصب الذبقي على رفائيه وكانوا كلهم  
أكبر منه سنا . وقد نقل لنا اولاده ما سمعوه من بعض اعمامهم عن اجتهاد والده في صباه  
وكتفه بالعلم والعمل معا وهو انه حفظ اسماء كل النباتات البرية التي تنمو في تلك النواحي  
وتعلم ترتيبها وتقسيمها الى رتبها وصفوفها وفضائلها وانواعها حسب نظام لينوس النباتي الشهير  
وجمع روميزها وجففها وربتها وتماعها بأسمائها حتى صار عنده منبته ذات شان وهو صبي صغير  
وكل ذلك رغبة منه في العلم لا اجابة لطلب ولا امتثالا لامر ولا تعلقا من استاذ  
راصبت اباه مصيبة ذهب بماله واورثته الفقر وذلك انه كفل صديقا له على مبلغ من  
المال بخان الصديق وغدر فاضطر ابوه إلى بيع كل ما يملكه من متاع وعقار صوتا لشرفه

(١) انظر الصفحة ٦٩٨ من السنة الثامنة من المتنطف والصفحة ٢١٥ من سر النجاح المطبوع في مصر

من العار ووفاء لدين القادر . ولذلك لم يستطع ان يوازره الا بالنزر اليسير مما يحتاج اليه من الكتب ولوازم التعلم فكان مدة بقائه في بيت ابيه يجد الكتب بوسائط شتى فتارة يستعيرها من رفاقه وتارة يستأجرها بدرهمات قليلات يجمعها وتارة يحفظ ما فيها بالسماع من قارئها وتارة يتذرع بالسعي في مصلحة انسان الى قراءة كتاب يقتنيه وتارة يجد ويرجع خائباً . وكان في تلك القرية طيب كريم الاخلاق يقتني مكتبة فلما رأى اجتهاده في تحصيل المعارف وجهاده للتغلب على مصاعب الفاقة اخذته الحمية ففتح له ابواب مكتبته وامتعته بشتى نفسه واماني صباه . وكان فيها كتاب كئيبه الشهير في علم الحيوان فاكب على درسه ولم يثن عنه حتى اغترف كل ما فيه . ثم تعلم كل ما تيسر له عن علمه عن حيوان بلاده . ولم يرض عليه زمان طويل حتى جرى في ميدان المعارف شوطاً يذكر فجعل يخطب في علم الكيمياء على فرقة من بنات بلاده وهو ابن ثماني عشرة سنة . وربما توهم الذين عرفوه او الذين اطلموا على مؤلفاته وسمعوا بواسع علمه انه كان كل ايامه محفوظاً بوسائط العلم والتعليم حاصلًا على ما يلزم من معدات التأليف والتدريس حتى حصل ما حصل وألف ما ألف ولكن الذين عرفوا احواله حق المعرفة يعلمون انه قاسى في صغره اشق المصاعب حتى تسهل له تحصيل المعارف وانه قضى اكثر ايامه في ضنك فصار ابن خمسين عاماً وهو لا يقدر ان يتناح الأما ندر من الكتب المستحدثة ولم يسهل الاتفاق على تحصيل ما يشتهي من الكتب والجرائد والادوات العلمية الا بعد سنة ١٨٦٢

وكان ابوه طبيباً فجعل يدرس الطب في صباه عليه وكان يخدم في صيدليته فأقن من الصيدلة فيها علماً وعملاً ولما حصل ما تيسر له الحصول عليه عند ابيه جعل يتلقى الدروس الطبية في سبرنكفيلد ثم أتم دروسه في مدرسة جيمرسن الطبية بمدينة فيلادلفيا من مدن الولايات المتحدة حيث نال الدبلوما والرتبة الدكتورية في الطب . وكان تعلمه في هذه المدرسة على نفقة ذويه فكانت مساعدتهم هذه له اساساً الاعمال العظيمة التي عملها في سورية وسائر البلدان العربية من التعليم والتهديب والبر والخير والاحسان

وفي الحادية والعشرين من عمره فارق الخلائق والاطوان واتى سورية مراسلاً من قبل مجمع المسلمين الاميركيين وحل في بيروت في ٢ ابريل ( نيسان ) سنة ١٨٤٠ ولكن لم تطل اقامته فيها حتى قام منها بايعاز المجمع المذكور واتى القدس طبيباً لعيال المسلمين الذين كانوا فيها ايام فتوح ابراهيم باشا في بلاد الشام . فأقام فيها تسعة اشهر ثم قفل راجعاً الى بيروت حيث شرع في درس العربية . وحينئذ تعرف بالمرحوم بطرس البستاني وكانا كلاهما عزيزين فسكنا

معاً في بيت واحد وارتبطا من ذلك العهد برباط المودة والصداقة وبقيا على ذلك طول الايام حتى صار يضرب المثل بصداقتهما . ولما توفي البستاني كان اشد الناس حزناً على فقده حتى انه لما طُلب منه تأييد خنقته العبرات وتلثم لسانه عن الكلام وبقي برهة يردد قوله « يا صديق صباي » حتى لم تعد ترى بين الحاضرين الا عيناً تدمع وقلباً يتوجع وجعل يدرس العربي على الشيخ ناصيف البازجي ثم على الشيخ يوسف الاسير الازهري وغيرها من علماء اللغة وبذل الجهد في درسها والاخذ بمحذافيرها حتى صار من المدودين في معرفتها وحفظ اشعارها واهتمامها وشواهدها ومفرداتها واستقصاء اخبار اهلها وعلمائها وتاريخها وتاريخهم . فهو بلا ريب اول افرنجي اتقن معرفة العربية والنطق بها والبيان والتأليف فيها حتى لم يعد يمتاز عن اولادها . وبقي على ذلك إلى خريف سنة ١٨٤٢ ثم انتقل إلى عيئات وهي قرية بلبنان واقربن هناك بالسيدة جوليا بنت مستر ابت قنصل انكلترا في بيروت المشهورة بفضلها وحسن اخلاقها . ثم انتقل من عيئات إلى قرية عبيه وهناك انشأ مع صديقه بطرس البستاني مدرسة عبيه الشهيرة وشرح من يومه في تأليف الكتب اللازمة للتدريس في تلك المدرسة فألف كتاباً في الجغرافية وآخر في الجبر والمقابلة وآخر في الهندسة وآخر في اللوغاريتمات وفي المثلثات البسيطة والكروية وفي سلك الاجمر والطبيعات وقد طبع بعضها وبعضها لم يطبع . وبعد ان قضى في عبيه اربع سنوات على ما ذكرنا في التدريس والتأليف دعاه مجمع الرسائل إلى صيدا وعهد في مدرسة عبيه إلى المرحوم سمعان كاهون رجل اشتهر بالفضل والاستقامة والتقوى . وبقي الدكتور فان ديك مع صديقه الفاضل الدكتور طمسن في صيدا وتوابعها محباً واعظاً مبشراً جائلاً من مكان إلى مكان حتى توفي المرحوم عالي سمث سنة ١٨٥٧ فانتدب الدكتور فان ديك لترجمة التوراة والانجيل مكانه

وكان عالي سمث قد باشر ترجمة التوراة والانجيل من اللغتين الاصليتين بمعاونة المعلم بطرس البستاني واتمّ ترجمة سفر التكوين وسفر الخروج الا الاصحاح الاخير منه وراجعها وصححها وترجم اسفاراً اخرى ولكن لم يراجعها فلما انتدب الدكتور فان ديك مكانه ابقى السفرين الاولين على حالهما وترجم وراجع ما بقي وعانى في غضون الترجمة من الالتهاب ما لا يعرف الا الذين يعرفون تدقيق النصارى في التفتيش عن اصل كل لفظة من الفاظ كتابهم وعن معنى كل آية من آياتهم . وتولّى مع الترجمة ادارة المطبعة الاميركية المشهورة وحسن فيها وزاد الشكل على الحروف حتى صارت من احسن مطابع المشرق واشهرها . واتمّ الترجمة سنة ١٨٦٤ وبعثه مجمع المرسلين إلى الولايات المتحدة سنة ١٨٦٥ ليتمولى امر طبعها وعمل الصفائح بالكهربائية

لما هناك فأقام في الولايات المتحدة سنتين حتى اتم ذلك وعاد إلى سورية سنة ١٨٦٧ .  
وليس من غرضنا الآن ان نصف هذه الترجمة التي شهد لها اعظم علماء الارض بالدقة والصحة  
ومطابقة الاصل وقد صارت النسخ المطبوعة منها الوفاء والوف الاوف حتى لم يبق مكان في  
المشرق الا بلغت اليه وانتشرت فيه

وكان اثناء وجوده في اميركا يدرس العبرانية في مدرسة يونيون اللاهوتية وكان الطلبة  
يعاونون درس هذه اللغة قبل تدريسه لها ويايرون الحضور في ساعة تدريسها الصغوبتها ووعورة  
اسلوب التدريس . فلما شرع في تدريسها غير هذا الاسلوب وطول باعه فيها جعل يعلمهم  
اياها كلفة حية لا ميتة بحيث صار الطالب يجد في درسها معنى ولذة ويرغب في تحصيلها .  
فتقاطر الطلبة اليه وتكاثر عددهم فلما رأت عمدة المدرسة ذلك عرضت عليه ان يتولى  
منصب استاذ العبرانية فيها وعينت له راتباً كبيراً فاعذرها عن قبوله قائلاً « اني تركت فلي  
في سورية فلا لذة لي الا بالعودة اليها » . وفي تلك الاثناء تم امر انشاء المدرسة الكلية في  
السورية في بيروت على نفقة جماعة من اهل الخير في الولايات المتحدة باميركا فعرضت عليه  
عمدتها الكبرى في اميركا ان يكون استاذاً فيها فاجابها إلى ذلك ثم طلبت اليه ان يعين  
راتبه السنوي بنفسه فكتب ٨٠٠ ريال مع ان راتب اصغر استاذ فيها لا يقل عن ١٥٠٠  
ريال وقد فعل ذلك حباً بخير البلاد وتقع اهلها

ولما وصل إلى بيروت باشر تأسيس المدرسة الكلية الطبية مع صديقه الفاضل الدكتور  
يوحنا وربيات . ووضعاً نظاماً لدروسها وشرعاً في التعليم من ساعتها لا يحاسبان على  
اتعاب ولا ينتظران من احد تبيلاً لقدرها ومدحاً لاسميهما . بل ان الدكتور فان ديك  
لما رأى ان المدرسة تنفق إلى استاذ يدرس الكيمياء فيها أقبل من فورهم على تدريسها  
حال كونه معيناً استاذاً لعلم الباثولوجيا وحده . ولم يكن في المدرسة حينئذ من كل ادوات  
الكيمياء الا نضيب من زجاج وقنينة عيقة فاتفق من ماله مئتي ليرة انكليزية على ما يلزم من  
الادوات . ولم يكن في يد التلامذة كتاب يطالعون فيه فجعل يلقي العلم علينا خطباً مبتدئاً  
بالتجارب الكيماوية ومستطرداً من الجزئيات إلى الكلّيات على اسلوب يقرب هذا العلم من  
الافهام ويرسخ حقائقه في الازهان . وقد مر علينا الآن نحو ثلاثين سنة ولا تزال تذكر  
اكثر ما كان يلقيه علينا من درر النوائد لحسن الاسلوب الذي القاها به . وألف حينئذ  
كتاباً مختصراً في مبادئ الكيمياء حفظناه خطأ ثم توسع فيه وطبعه على نفقته وهو يعلم انه لا  
يسترجع نفقات طبعه قبل مماته . وبقي يدرس هذا الفن ست سنوات متواليات وينفق على لوازم

التدريس من جيبه . وجاء استاذ الكيمياء وبقي سنتين من الزمان يدرّس العربية والدكتور فان ديك يدرّس مكانه مجتاً حياً بصالح المدرسة وخير ابناء البلاد . ولما تولج استاذ الكيمياء اشغاله اعتزل الدكتور فان ديك عنها وترك للمدرسة كل ما اتفق عليها ولم يأخذ مقابلته الأمانة ليرة انكليزية

ولم يقتصر على هذا التبرع بل انه تولج منصب استاذ ثالث وهو استاذ علم الفلك . وذلك ان المدرسة لم يكن عندها مال يقوم بنفقة استاذ لهذا العلم فتبرع بتدريسه مجاناً وألف له كتاباً مسهباً وطبعه على نفقته أيضاً كما طبع كتاب الانساب والمنذات والمداحة والقطوع المخروطة وسلك الاجر . ولم يكن في المدرسة آلات فلكية يعدّها فها ثبت ان شرعت في بناء مرصدها حتى اتباع له آلات بسعائة ليرة انكليزية من ماله الخاص . وأثت وفرش فيه على نفقته . وكان اسلوبه في تعليم الفلك مثل اسلوبه في تعليم الكيمياء والباثولوجيا مبنياً على العمل والمشاهدة حتى يجهد الطالب فيه لذة فلما يجدها في درس العلوم العويصة كهذا العلم وانشأ المرصد اسماً كبيراً حتى صار معروفاً في المشارق والمغرب مقصوداً من القريبين والبعيدين مراسلاً لاشهر مرصد الارض . ولما خلفه احدنا في تدريس علم الفلك الوصفي ألف كتاباً في الفلك العملي وجعل يعلم به الطلبة على الآلات . وكان مع تدريسه علم الباثولوجيا وعلم الكيمياء وعلم الفلك يتولى ادارة المطبعة الاميركية فيفتح ما يطبع فيها من الكتب ويهتم بتأليف النشرة الاسبوعية ويطبّب في مستشفى ماري يوحنا حيث كان يتقاطر اليه المرضى افواجاً افواجاً حتى يبالغ عددهم الالوف في السنة . وما بقي من الوقت الذي يخصصه غيره بالنزهة والرياضة والراحة والنوم كان يقضيه في تأليف الكتب العلمية والطبية والدرس والمطالعة والتجارب العلمية وحضور الجمعيات النافعة ومراسلة العلماء في سائر اقطار الارض حتى كان اهل بيته لا يرون منه أكثر مما يرى منه الغريب . وكل ذلك قياماً بالواجبات التي يعجز جماعة من الرجال عن القيام بها

ومن مزاياه انه لم يكن يؤخر الى الغد عملاً يقدر ان يعمله اليوم ولذلك كنت تراه معدداً كل ما يطلب منه قبل زمان طلبه . وكان كلما طلب منه اهل بيته ايام اشغاله في المدرسة انكسب ان يستريح بين عمل وآخر ويؤخر الاشغال الى اوقاتها حرصاً على صحته يجيبهم : اخاف ان يقاجئني مرض او يعارضني معارض فأكون سبب خسارة لكل من تتعلق اشغاله ومصالحهم بي فالواجب علي ان أكون سابقاً في انجاز اشغالي جذراً من ذلك . واكثر اهتمامه باشغال المدرسة واشغاله بمصالحها عن غيرها كان اصحابه يكلمونه في ذلك فلا يسمع لهم حتى

صار من الافعال الشائعة بين معارفه انك اذا رمت ان تكون على رضى مع فان ديك فأيامك ان تشغله بشاغل عن المدرسة الكلية واذا اردت ان تسرّ قلبه فكلّمه عن المدرسة والتلامذة والمرصد والتأليف . وقد ألف اثناء وجوده في المدرسة الكلية كتابه في الباثولوجيا وهو مجلد ضخّم وكتبه في التشخيص الطبيعي وفي الكيمياء وفي الفلك الوصفي وفي المثلثات والمساحة والقطوع المخروطية وكلها مطبوع . والف كتاباً في الفلك العملي وآخر في امراض العينين وآخر في تخطيط السماء وقد طبع حديثاً

ورأينا في تلك الاثناء انه يستحيل علينا ان نجاري الامم الغربية في العلوم والمعارف اذا اقتصرنا على ما يترجم ويؤلف من الكتب لان العلوم الحديثة جارية جرياً حثيثاً فما يؤلف فيها هذا العام يسمى بعضه قديماً في العام التالي ولا بد من جريدة تقتطف ثمار المعارف والمباحث العلمية شهراً شهراً وتذيعها في الاقطار العربية . ففقدنا النية على انشاء المقتطف لهذه الغاية ورسمنا خطته التي سار عليها منذ انشائه إلى الآن ولم يجتز له اسماً بل قننا كلانا وذهبنا إلى استاذنا الدكتور فان ديك وكان في المرصد الفلكي حيث كان يقضي اكثر اوقاته فاستشرناه بما عزمنا عليه وسألناه ان يختار لنا اسماً له . فابرت اسرته وجعل يشدد عزائمنا ويسهل علينا الصعاب . وقال سمياه « المقتطف » واجعله كاسمه وحسبكا ذلك . ثم كتب إلى صاحب السعادة خليل افندي الخوري الشاعر المشهور وكان مديراً للطبوعات في سورية يطلب اليه ان يسعى لنا في جلب الرخصة السلطانية بأسرع ما يمكن . فنقل ولم يمض شهر من الزمان حتى اتتنا الرخصة السلطانية فذهبنا وبشرناه بها نقال اسيراً في عملكنا والله معكنا وانا ساشرع من هذه الساعة في كتابة بعض الفصول للمقتطف . فكتب فصول اطباء اليونان والشرق ونشرنا اول فصل منها في الجزء الثاني من المقتطف الذي صدر في غرة يوليو (تموز) سنة ١٨٢٦ . واباح لنا كل ما عنده من الكتب والجرائد والآلات والادوات لكي نستعملها كما نشاء من غير سؤال

وفيا هو لاه باشغال التأليف والتدريس والرصد والمراسلات العلمية عما سواها من مطامع البشرية نكبت المدرسة الكلية بمجاذب ابد عنها اكثر اساتذتها فتركها تخملاً آمم فراقها محافظة على مبادئه . وبقي يطب في مستشفى ماري يوحنا على جاري عاده الى ان اضطر ان يتركه على غير رضى منه . لكنه اتم تركه ليحيى في الوجود مستشفى طائفة الروم الارثوذكسين الذي صار له الآن ايام تذكر في الوحمة بالمساكين ومعالجة المرضى والبائسين ورفع استعارته من المدرسة الكلية موقفاً عظيماً في نفوس السوريين وغيرهم من ابنا

اللغة العربية لانهم حبسوا انه أكره عليه أكراماً لجاءته الرسائل تدرى من كل انحاء البلاد العربية مقررة بفضلهم مبينة عظم منزلته ومنها رسالة من دمشق الشام بامضاء الامير عبد القادر الحسيني الجزائري والسيد محمود حمزة مفتي الشام والشيخ سليم العطار والدكتور ميخائيل مشافة وعبد بك القدسي وغيرهم هذا ونصها

”حضرة العلامة الفاضل الفيحوف الدكتور كرنيلوس فان ديك الجزيل الاحترام  
 غب سؤال شريف خاطر كم الكريم مع الاحترام والاعتبار الخ . . . . . انا نحن محتربي  
 جنابكم لدى تأملنا في استقالكم من المدرسة الكلية التي لم تقم ولم يبق سواها من مرقبات  
 المعارف الأبهتمكم وفضلكم ولدى تفكرنا فيما انطويتم عليه من حسن السجايا والمزايا والمحبة  
 لوطننا السوري الذي طالما خاطرتم بحياتكم ومصالحكم في سبيل نفعه وترقيته ولدى نظرنا في  
 مؤلفاتكم الجمة التي اعيتتم النفس في تأليفها وفي التلامذة الكثيرين الماهرين الذين ظهروا  
 ثماراً لفرسكم لم يسعنا الحال ولا ارتاحت الحاسيات إلا إلى اظهار الشكر لبروفكم والاقرار  
 بفضلكم . وجل ما نستطيع تقديمه الآن لحضرتكم حبنا وانعطاف قلوبنا ومثنتنا لكم ليعلم الغير ان  
 الدكتور كرنيلوس فان ديك له الميزة الاولى في قلب كل سوري تخلص لوطنه وان يديه  
 الاقتدار على نفع بلادنا خارج المدرسة الكلية كما كان ينفعها فيها . فبناء عليه وعلى امور  
 كثيرة سيظهرها المستقبل تبياناً لفضلك ايها الحبيب لابناء سورية عموماً . رفنا اليك  
 رسالة التحية والاعتبار سائلين الحق تعالى ان يحفظك ويقيك طويلاً مع عائلتك الموقرة  
 والمحبوبة عندنا التي نخص بالشكر منها شبك الهمام الدكتور وليم ونؤمل انه لا يقل عنك  
 بشيء واطال الله تعالى بقاءك“

وبلي ذلك الامضاءات

وبقي بعد تركه المدرسة الكلية مكباً على التأليف والتصنيف ورصد الافلاك ومعالجة  
 المرضى والاهتمام باشغاله في جمعية المرسلين . وكان قد كل بصره من طول السهر وشقات  
 التأليف ولكنه بقي حتى آخر ايامه من أبش خلق الله وجهاً والظنهم معشراً واكثرهم انساً  
 يتتجم الاشغال بهمة الفتيان . ويكاتب تلامذته ومريديه ويسعى في كل مأثرة ويسبق الى  
 كل مفخرة كما سيجي . والصورة التي صدرنا بها ترجمته منقولة عن صورة فوتوغرافية صورت  
 منذ بضعة عشر عاماً . وسأقي على بقية ترجمته في الجزء التالي ونشر له صورة اخرى فيه  
 تمثله في اخريات ايامه